الإسكندر المقدوني والعالم الجديد

د. كمال سالم رزيق

عضو هيأة التدريس بقسم التاريخ جامعة بنغازي

المستخلص:

يلتقي معظم علماء الآثار والمؤرخين في مرحلة ما من حياتهم الأكاديمية مع الإسكندر الأكبر، بالنسبة للبعض يرى مسيرته بانها مجرد مواجهة لفترة قصيرة والبعض الآخر يراها حقبة طويلة مليئة بالأحداث التاريخية. لقد اعتبر الإسكندر الأكبر أحد أكثر الشخصيات المثيرة للاهتمام في العالم القديم، تناولت هذه الدراسة الفترة التي كان الاسكندر فيها على قيد الحياة، وتأثير ذلك على من جاء بعده من الخلفاء في ازدهار الثقافة الهلينية. لا يوجد حاكم في العصور القديمة يناشد الخيال بقدر الإسكندر الأكبر أثناء شبابه، ألهم الناس من حوله، تبع فيها خطى ديونيسوس ووصل إلى سوريا ومصر وبلاد فارس وبكتريا والهند، وأسس عواصم جديدة في كل مكان منها حملت اسم الإسكندرية، لقد ترك وراءه إرث الحضارة اليونانية في شكلها الهليني.

الكلمات المفتاحية: الاسكندر – فتوحات الاسكندر – الحضارة اليونانية

المقدمة:

تتناول هذه الدراسة جزءًا مهماً من تاريخ العالم القديم بشكل عام، وتاريخ مقدونيا بشكل خاص، حيث يعد ظهور الإسكندر المقدوني على الساحة السياسية حدثاً مفصلياً في التاريخ، ويعتبره الكثيرون المؤسس الحقيقي للعصر الهلينستي، وقبل أن نشرع في موضوع هذا البحث، من المفيد أن نشير إلى أن هذه التسمية (الهلينستي) مثار جدل واختلاف من حيث المعني والدلالة، فهي تشير بشكل واضح إلى الفترة التاريخية التي أعقبت نهاية سيطرة دويلات المدن الإغريقية على مقدونيا، وتنتهي بغزو الرومان لمناطق نفوذ قادة الإسكندر، وتجدر الإشارة إلى أن فتوحات الإسكندر انتهت بوفاته في 323 ق. م، وما أعقب ذلك هو صراع بين رفاقه، الذي انتهي بتقسيم هذه الرقعة الجغرافية الواسعة إلى ثلاث ممالك هي مملكة البطالمة في مصر، والمملكة السلوقية في بلاد الرافدين، والمقدونية التي تشمل مقدونيا وبلاد الإغريق، فقد كان لكل منها نظام سياسي مستقل استقلالاً تاما عن الممالك الأخرى، وبالتالي اعتقد أن ما يعرف بالعصر الهلينستي هو عبارة

عن مرحلتين: الأولى تبدأ من وفاة فليب المقدوني والد الإسكندر، وتنتهي بوفاة الإسكندر، والمرحلة الثانية هي مرحلة تكوين دويلات منفصلة عن بعضها البعض، لا يجمع بينها سوى أن مؤسسيها كانوا يوما شركاء وقادة لجيوش الإسكندر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخري فإن هذه الدويلات وهذا العصر اتسم بسيطرة الثقافة الإغريقية ((الهلينية))، وانتشارها بشكل كبير، فاق ما وصلت إليه زمن حركة الهجرة والاستعمار الإغريقي، في الفترة ما بين القرنين الثامن والسادس ق. م.

نشأته:

هو الإسكندر الثالث المقدوني (الأكبر) ولد في بيلا سنة 356 ق. م، والده فيلب الثاني ملك مقدونيا، وأمه أولمبياد، نشأ في قصر والده في أحضان عائلة مقدونية ذات ثقافة إغريقية، وأظهرت اهتماماً كبيراً بالثقافة والتقاليد الإغريقية، وجعلت من بيلا مدينة تشبه كثيراً دويلات المدن الإغريقية، فاستقدموا المفكرين والمعلين من المدن الإغريقية؛ لتعليم الناس اللغة والثقافة الإغريقية، حتي أصبحت العاصمة بيلا مركزاً من مراكز الحضارة الإغريقية، حيث تمكن الإسكندر من تلقي تعليماً مميزاً علي يد كبار علماء بلاد الإغريق ومفكري هم، من أمثال: أرسطو طاليس، وليسماخوس، وليونداس وغيرهم، وإن كان الإسكندر يدين بكثير من علومه وأخلاقه إلى المعلم أرسطو الذي استقدمه فيلب في عام 343 ق. م، وبقي ملازماً له مدة أربعة أعوام كاملة، تعلم منه مبادئ السياسية وفنون الحكم وحب العمل والإخلاص فيه، وكان لهذه التربية والتنشئة على يد نخبة من أبرز المفكرين في ذلك الوقت دورٌ كبيرٌ في تشكل شخصيته، ويمكن القول: إن هذه الطفولة الحافلة بكل هذا العلم والرقي أثرت إيجابياً في سلوك الإسكندر عندما أصبح يملك مقاليد الأمور في مقدونيا، يحسب لفليب الأب أنه سمح لأبناء النبلاء المقدونيين بتلقي تعليمهم المتوسط والعالي باللغة الإغريقية، بل إن بعضًا منهم تعلم مع الإسكندر وأصبح ضمن القادة الذين شاركوه الفتوحات.

والتعليم الذي ناله الإسكندر يظهر بشكل مباشر في حبِّه للثقافة الإغريقية _ التي علينا أن نقول إنها شكلت أهم روافد الثقافة والعلوم الإنسانية، وبنى عليها كثيراً من العلوم والآداب في عصرنا، فنجده ضد الاتجاه السائد آنذاك، المنادي بحصر الثقافة الإغريقية وعزلها من خلال نبذ غير الإغريق ووصفهم بالبرابرة، ولكون الإسكندر نفسه ليس إغريقياً، كان من السهل عليه تبني فكرة

الإخاء، واحتفظ بالجوانب الإنسانية في شخصيته المستقلة، التي أظهرت من طفولته ميلاً كبيراً للتعلم والتفكير الناضج للأمور، لكن التبعات والمهام التي ألقيت عليه قبل الأوان لم تترك له الفرصة لتعلم المزيد، والتمعن في الأمور الكبيرة التي تعلمها، إذ اختارته المقادير لتولي قيادة الجيش المقدوني، الذي نادي به ملكاً للبلاد وهو في مقتبل العمر، ونسب إليه أنَّه أرسل إلى معلمه أرسطو يقول ما معناه: (خيراً لي أن أتفوق على غيري في العلوم من أن أتفوق عليهم في اتساع الملك و قوة السلطان)، ويذكر بلوتارخ أنه كان شديد الشغف بالعلم، وكان يحزنه ما يحزن الكثيرين من رجال الجد والعمل، وهو أنه لا يستطيع أن يكون مفكراً، وكان من أسباب سروره بعد أن يقضي يوماً في السير والقتال أن يسهر حتى منتصف الليل يتحدث إلى الطلبة والعلماء، كما كان شديد الولع بكل المعارف، محبا لقراءة جميع الكتب التي ترافقه في حله وترحاله دوماً (تارن، 1992: يحيى، 1977).

قد شكلت هذه الطفولة المغلفة بالعلم والأدب والسياسة عنصراً مهما في شخصية الإسكندر وأثرت في سلوكه، ويمكننا أن نضيف شيئاً آخر كان له أثرٌ ملوسٌ في تكوين الإسكندر العقلي، ألا وهو كون أمه فارسية لها ثقافتها الشرقية، التي من دون أدنى شك أن للإسكندر نصيباً منها، يضاف إليها إعجابه الشديد بقورش الكبير مؤسس الإمبراطورية الاخمينية 580 _529 ق. م إلى حد أنه اتخذه قدوة في حروبه.

فتوحاته في الشرق:

تولى الإسكندر المقدوني القيادة العسكرية بعد وفاة فيليب المقدوني (ثرب) فاتحا تاريخه العسكري بالقضاء على محاولات المدن الإغريقية الانفصال عن الاتحاد الهليني، مستغلة في ذلك كون القائد الجديد لجيوش مقدونيا شابا صغيرًا لم يتعدَّ عمره الثامنة عشر، لكنه تمكن من فرض السيادة المقدونية على المنطقة الممتدة من البيلوبونيز جنوباً، إلى حوض الدانوب شمالاً، ومن جزيرة كير كيرا غرباً، إلى البسفور شرقاً، ثم قرر الإسكندر الدخول في موجهات كبرى مع جيوش الإمبراطورية الفارسية في معارك جرانيكوس 334 ق. م، وإسوس333 ق. م، وفتحت بذلك معظم المناطق الخاضعة للفرس في النصف الشرقي من العالم القديم، وبعد آسيا الصغرى بسط الإسكندر سلطته على شواطئ البحر المتوسط الشرقية، فاستولى على فينيقيا بعد حصار طويل لصور، واستسلمت

لقواته قبرص، ثم انطلق نحو مصر الفرعونية التي استقبلته فاتحاً ومخلصاً لها من حكم الفرس، وعندما وصلت جيوش الإسكندر إلى باراتونيوم أرسلت له كيريني(•) بسفرائها اعترافاً له بالسيادة (هيرودوتس، فقرة 150). فالسيطرة على هذه المناطق والموانئ المهمة شرق المتوسط في فينيقيا وسوريا وفلسطين ومصر وسيرينايكا، حيث مكنت الجيش المقدوني بقيادة الإسكندر من القضاء على قواعد الأسطول الفارسي، التي كانت تمده بالسفن والبحارة، وفي معركة كوكميلا في أبريل سنة 331 ق. م. تمكنت القوات المقدونية من هزيمة قوات فارس البرية، والاستيلاء على عواصم الإمبراطورية العظمى في سوسة وبابل وباسرجاد، وخضعت بقية المناطق والمدن حتى شواطئ بحر قزوين سنة 329ق. م وإلى نهر السند 325 ق. م. (أسد الله، 1985، أبو بكر، 2001).

وبعد سقوط الإمبراطورية الفارسية –القوة العظمى آنذاك– انتهت مرحلة، وبدأت مرحلة أخرى، آلت قيادة العالم فيها إلى مقدونيا، الدولة الناشئة، التي ورثت السيادة السياسية والعسكرية لكل مناطق الفرس والإغريق، بعد أن امتدت حدودها من جنوب أوروبا إلى سواحل آسيا الصغرى، ومن شرق البحر المتوسط حتى ساحل أفريقيا الشمالية، هذه الرقعة الجغرافية المترامية الأطراف شمالاً وجنوباً، وتضم بين جوانبها عناصر ومكونات من الشرق والغرب، تحت سيادة سياسية واحدة، وتلتقي بذلك هذه الأقطاب المتباعدة والمتناحرة، بدأ يعمل على الإعداد لبعثات استكشاف للمناطق البعيدة جداً، والتخطيط لحملات أخرى لاستكمال بقية الفتوحات شرقاً نحو شواطئ شبه الجزيرة العربية، وإلى الشواطئ الشمالية لبحر قزوين، كان يعمل على كل هذه النواحي السياسية والعسكرية عندما باغته الموت في صيف عام 323ق. م، وقبل أن يتمكن من بناء المؤسسات الإدارية والعسكرية لإمبراطوريته، وذات رؤية واضحة يمكنها أن تحكم العالم الجديدة على قواعد راسخة، وأسس متينة، تصلح لجمع شمل شعوب الدولة الجديدة ومكوناتها، ومنها سياسة الدمج العنصري(•)،

• إحدى أهم مدن سيرينايكا الإغريقية الخمس، أسسها مهاجرون من جزيرة ثيرا وهي، بحسب هيرودوتس (4: 150) فإن باتوس بن بولومنستوس سليل يوفيموس بن بوسيدون هو أول حكامها ومؤسس الأسرة الباتوسية منذ سنة 631 ق.م. وقد تعاقبه أبناؤه على حكمها وآخرهم اركسيلاوس الرابع 465– 440 ق.م. المحجوب، عبد المنعم، معجم تانيت، بيروت، دار الكتب العلمية، 2013، ص 789.

• المقصود بالدمج العنصري الاختلاط الحضاري بين العنصرين المقدوني والفارسي بما فيها صلات المصاهرة والنسب، وتطبيقاً لسياسته تلك تزوج الإسكندر بابنة الملك الفارسي دار يوس، واقترن حوالي 10000 من جنوده بنساء فارسيات، وإضافة إلى تشجيع الزواج المتبادل، قام بإدماج عناصر شرقية في صفوف الفرسان وتبنى الوسائل الفارسية في الجيش، وإدخال نبلاء الفرس في عداد القوات المختارة في الحرس الملكي والخاص، واقتبس كذلك من العادات والمراسم، واعترف بديانات الشعوب، وأظهر الاحترام لها، والأهم أنه عمل على امتداد الثقافة الهلينية في الشرق بواسطة تأسيس مراكز لهذه الثقافة، تمثلت في بناء العديد من المدن على النموذج الهليني. لامب، هارولد ، الإسكندر المقدوني، (ت. عبد الجبار عبد المطلب ومحمد ناصر الصانع) ، بغداد، المكتبة الأهلية، 1995، ص 47.

غير أنه بموته توقف الزحف المقدوني بعد سلسلة من الفتوحات المتتالية في اتجاهات عدة؛ شمالاً وجنوباً، في أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث توجد المراكز الحضارية الكبرى الإغريقية والفارسية والمصرية في الغرب والشرق، ولكن أصبحت كل مناطق هذه الحضارات القديمة خاضعة لحكام جدد، وقادة مقدونيين يتمتعون بالثقافة الإغريقية.

وعلى الرغم من أنه من بعد الإسكندر لم يتحقق توحيد العالم الجديد وحكمه وإداراته بعناصر من الإغريق والفرس، فإن عهده القصير والمزدحم بالأحداث والوقائع يعتبر مرحلة مفصلية من مراحل الانتقال الكبرى، من جميع النواحي بالنسبة للغرب والشرق على حد سواء، وصارت حدود السلطة المقدونية عند موته تمتد فوق ثلاث قارات؛ من الجنوب إلى وسط أوروبا وشمالها، ومن شواطئ آسيا الصغرى حتى ساحل أفريقيا الشمالي، ومن مقدونيا إدارة هذه الدولة ومركزها، وخاصة بعد أن توقفت سياسة الإسكندر في الدمج العنصري التي حاول تطبيقها أو فرضها في المناطق المفتوحة، بل إنها أحدثت وقتها شيئاً من الشرخ عندما حاول فرضها في علاقته مع فريق من مواطنيه الإغريق، ممن كانوا لا يؤمنون ولا يميلون إلى سياسة الاختلاط هذه، وفي نهاية الأمر فشلت السياسة الاندماجية بموته، وهنا يجب القول: إنَّ كثيرًا من الباحثين يتكلمون على إمبراطورية الإسكندر، وكيف كان يحلم بتحقيقها. وفي اعتقادي أن هذا الأمر لا يتعدى كونه اجتهادات لهؤلاء؛ لأنه لا توجد أي وثيقة تعود للإسكندر أو في زمنه تؤكد هذا الزعم، وحتى القليل الذي بقي لنا من كتاب بطلميوس لم يذكر شيئًا عن الإمبراطورية المزعومة، وإن كانت الرقعة الجغرافية الواسعة التي امتدت على ثلاث قارات أوحت لهؤلاء بهذه الفكرة، فالرجل خطفه الموت مبكراً، ولم يستكمل حربه التي بدأها شاباً يافعاً، أقصى أمانيه السيطرة على مقدونيا ودويلات المدن اليونانية، وقيل عن الرجل إنه كان يريد دمج الحضارة الغربية والحضارة الشرقية، بل إنَّهم قالوا: إنَّ سبب تسمية هذه الفترة التاريخية بالعصر الهلينستي تعود لهذا الدمج، والواقع أن هذا زعم آخر باطل؛ لأن ما كان يفعله الإسكندر بالمدن والدويلات التي يفتحها هو وضع حاكم مقدوني يدير شؤونها، وكما أسلفت لم تقم مؤسسات مدنية تُعنى بالثقافة أو غيرها من المؤسسات، فالمهم هو دفع الجزية للحكام الجدد، ولكن المجتمعات حافظت على هويتها إلى ما بعد موت الإسكندر، واذا استثنينا مصر الفرعونية زمن دولة البطالمة، التي جاءت في فترة متأخرة كثيراً بعد موت الإسكندر ، وسقوط إمبراطورية

Tarn, W. William G Griffith, G. T., Hellenistic Civilization , 2 and , London, 1830, p. 1.

فارس، لم يكن في الواقع زوالاً لحضارتها، بل إن ذلك هيأ لحضارة أخرى ورثت الحضارات الفارسية والإغريقية، كذلك لم تكن هذه الفتوح اتساعاً لدائرة الحروب والهجرات فقط، بل أدت إلى عودة الأفكار والاتصال عندما كان الشرق والغرب في أعقاب نهضة حضارية وسياسية(•).

الجوانب الحضارية لبلاد الإغريق تحت حكم الأسكندر.

أولاً / الجانب الثقافي:

من خلال الفتوحات التي قامت بها بلاد الإغريق تحت قيادة مقدونيا بزعامة الإسكندر تكوَّن كيان كبير من أمم ودول متعددة الأجناس واللغات والأديان والألوان، ظهرت دولة هي خليط من الثقافة والحضارة التي سادت فيها ثقافة الإغريق ولغتهم، الذين نقلوا بذور حضاراتهم الإغريقية إلى قلب آسيا وغربها، وحدود الهند ومصر، ولكن الهجرات المتوالية التي استوطنت في هذه الجهات كافة لم تكن كافية لأغرقتها، والإغريق الذين هاجروا إلى هناك ظلوا يمثلون أقلية بالنسبة لعدد السكان الأصليين، وتأثير الاختلاط على العادات والعقيدة والسلوك إن حدث لم يكن بالغ الأثر، ومع ذلك يمكن القول إنَّها أتاحت الفرصة لعدة قرون من التبادل والاتصال بين الثقافة الإغريقية والثقافة الشرقية، وأسهمت بقدر كبير في نقل حضارة الغرب إلى حضارة الشرق، وتأثر كل منهما بالآخر، حتى وإن كان هذا الأثر لم يصل إلى حد رفع الحواجز العنصرية بين الغربيين والشرقيين، فإنه قد مكن من الاختلاط والتعايش بين الفئات المنتمية إلى العنصرين رغم وجود هذه الحواجز، وأياً كانت الوسيلة فقد مزجت أوروبا بآسيا، وإن لم يكن ذلك على الوجه الأكمل والمطلوب، وأن فكرة العالمية بتوقفها قبل أن تصل إلى صورتها المثالية، لكنها في الوقت نفسه لم تذهب دون أن تترك أثراً، ولم يعد في وسع هذه أو تلك أن تعود أبداً إلى ما كانت عليه من قبل، فعهد الإسكندر – على قصر مدته– يعد من المراحل المهمة في تاريخ العالم، إذ مهد ودفع لبناء واقع وشكل حضاري أوسع وأشمل، حيث النظام السياسي والاقتصادي المختلف، والهيكل الاجتماعي والثقافي المتغير (CAH,IV,1988,VII:Freeman,2011). تمثل هذا الانتقال السياسي أول ما تمثل في التحول

• روبنسن، ج، تاريخ العالم "انتشار الحضارة اليونانية في الشرق"، مج3، (ت إدارة الترجمة بوزارة المعارف)، مكتبة النهضة، د.ت، ص 10: بورتو، هارفى، مختصر التاريخ القديم، (ت إبراهيم حوراني)، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1991، ص 93– 295 تذكر بعض الروايات أن موت الإسكندر كان بسبب مرضه بحمى الملاريا في الثالث عشر من يونيه في مدينة بابل، وكان في الثلاثين من عمره، مكاوي، فوزي، الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والروماني، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 1999، ص 25.

ISSN للنسخة الإلكترونية: 2523 – 1871

من شكل أو نموذج دويلات، فقد جاء هذا التوسع في البداية على حساب دولة المدينة الإغريقية(•)، التي عرفت الحرية السياسية، وعاشت الحياة الديمقراطية قبل أن تفقد هذه المدن استقلالها، وتعترف بسلطة مقدونيا، فمنذ البداية ظهرت نتائج هذه الفتوحات بفقدان المدن الإغريقية لاستقلالها وحريتها السياسية، الأمر الذي أعقبه انهيار نظامها الديمقراطي العتيد، وهو نظام دولة المدينة، النظام والشكل الذي اعتاد عليه الإغريق، بكل ما يتصل به من قيم اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية وروحية، وحلت الملكيات والكيانات الكبرى محل المدينة القومية ذات الحيز الضيق المحدود، حيث قلبت الفتوحات المقدونية تلك المفاهيم رأساً على عقب بإحلالها سيطرة المدينة الواحدة على باقي الدويلات التي جاهدت مرات كثيرة من أجل استقلالها، ثم كان قيام الحكومات الاستبدادية العسكرية على أسس تختلف عن تلك التي عرفوها، مما ساعد على تقويض ما تبقى من تلك القيم والمثل، ومع ذلك فإن الحضارة الإغريقية لم تمت بموت الحرية الإغريقية، بل افتتحت لنفسها أقطاراً جديدة، وانتشرت في ثلاث جهات، بعد أن حطم تكوين الكيانات الواسعة ما كان يعترض سبل الاتصال والاستعمار والتجارة من حواجز طبيعية وسياسية، فاتسعت رقعة الدولة بالنسبة للإغريق على إثر هذه الفتوحات، وأصبحوا يقيمون ويتنقلون في عالم مغاير تماماً للعالم الذي كانوا يحيون فيه، فهاجروا في مجموعات كبيرة إلى آسيا ومصر وإبيروس ومقدونيا، وبذلك لم تزدهر مقدونيا مرة أخرى فحسب، بل إن الدم الهليني والثقافة الهلينية شقت طريقها إلى آسيا الصغرى وفينيقيا وفلسطين وسوريا وبابل، وتخطت نهري الفرات ودجلة، ووصلت إلى بلاد الهند نفسها، فبرزت مراكز ثقافية أخرى في الشرق، بعد انتقال مراكز هذه الحضارة المختلطة الجديدة خاصةً إلى العواصم الشرقية في مصر وسوريا، وانتقلت مراكز القوة بما فيها القوة الاقتصادية والثقافية إلى

• بعد العصر الهومري ظهر مجتمع جديد عرف بنظام دولة المدينة، ولم يعد المجتمع الإغريقي كياناً واحداً، بل لكل منطقة كيانٌ مستقلٌ قائمٌ بذاته، وله كل أبعاد الدولة والطبيعة الجغرافية جزأت وفرضت هذا التكوين– وهيأت الظروف لشبه الجزيرة وذات الأقاليم– المفصولة بالعديد من السلاسل الجبلية وطرق المواصلات الضيقة والمحدودة شكلاً سياسياً عُرف بنظام المدينة الحرة أو المدينة الدولة City State أي كان لكل مدينة سلطتها وسيادتها واستقلالها الذاتي، ولها دستورها الخاص وقوانينها، فكانت المدينة هي الدولة والوطن بمفهوم سكانها، وتأسست على هذا الشكل مئات من المدن الإغريقية، وحتى بعد خروج هؤلاء الإغريق من بلادهم الضيقة في متوالية من الهجرات إلى مناطق واسعة تمسكوا بهذا لشكل أو النظام الذي نمّت وتطورت في ظله حضارتهم الفريدة، وحتى في الأوقات التي قام فيها اتحاد أو تحالف بين هذه المدن، كان يقوم على أتفاق أساسه الحفاظ على الاستقلال والسيادة لكل مدينة أو إقليم، ومن أمثلته التحالف المعروف باسم رابطة البيلوبونيز، الذي يعتبر من بين جميع المؤسسات الإغريقية الاتحاد الأكثر استقراراً في سياساته وهو الشكل الذي تطور منه ما يُعرف بالنظام الاتحادي Federal، ويجد العديد من العلماء الارتباط وثيق بين شكل التأسيس الذي تكونت وعاشت في ظله المدن الحرة، وفترة الاستقرار السياسي والاجتماعي والازدهار الاقتصادي والنبوغ الفكري الذي تميزت به حضارة الإغريق، ولهذا عرفت الحضارة الهلينية الكلاسيكية بأنها حضارة المدن الحرة. حسين، عاصم أحمد، المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، القاهرة مكتبة نهضة الشرق، 1998، ص 138: -- .Glotz, G., The Greek City, London, 1929, p. 35

أماكنها القديمة، فبلاد الإغريق في العقود الأخيرة من القرن الرابع كانت قد دخلت في طور الانحدار.

ولكن، هل الإغريق كانوا شعباً نشيطاً ومغامراً؟

قد كانت للفتوحات المقدونية نتائج عديدة بالنسبة للإغريق والمدن الإغريقية، فهي التي وسعت أمامهم الآفاق، وأدت إلى الهجرة المطردة إلى الممالك الجديدة، التي تأسست في أعقاب حملات الإسكندر الأكبر إلى الشرق، بعد سقوط المدن الحرة، وظهور مدن ضخمة؛ كالإسكندرية وأنطاكيا وبرجام ورودس، وقيام ملكيات وراثية، وكان تأسيسه لأكثر من سبعين مدينة عاملاً دافعاً لاستيطان هؤلاء الإغريق في مصر وسواحل سوريا، حيث كان الإسكندر يضع الأساس لهذه المدن حيثما سار وحل، وترسم خلفاؤه في آسيا خطاه في هذا السبيل، فتدفقت أفواج المهاجرين الإغريق شرقاً وجنوباً في خلال القرن الذي أعقب وفاته؛ قاصدة مئات المستعمرات، ونقل الوافدون الجدد معهم لغتهم وآدابهم وفنونهم وأساليب معيشتهم، كما نقلوا نظمهم المدنية ومعاهدهم التربوية وألعابهم وأعيادهم، فهم الذين حملوا الثقافة الإغريقية والعبقرية الأدبية والعلمية ووطّنوها، فالعلوم والآداب والفنون والفلسفة والأفكار وأساليب الحياة والموارد والثروات من أقوى العوامل في نشأة حضارة الإغريق الراقية، عندما كانت المدن الحرة المستقلة أكبر مظهر تميزت به الحضارة الهلينية، وإليها قبل كل شيء يرجع الفضل فيما بلغته هذه الحضارة من ازدهار، ولكنها في الوقت ذاته كانت أكبر عائق حال دون تغلغل هذه الحضارة في العالم الشرقي، فحيثما ذهب الإغريق كانوا يعيشون في مدن أو جاليات مدنية، أصبحت مراكز صغيرة للحضارة الهلينية، غير أن استقرار الإغريق داخل حدود مدنهم جعل أثر هذه الحضارة على المحيطين بهم محصوراً في نطاق ضيق (Tarn, 1830, pp. 44-5; Renault, 1979).

• ثانياً / المجال الاقتصادي

أعقبت فتوحات الإسكندر إيجابية على النشاط الاقتصادي، نتج عنه زيادة في دخل الدولة والأفراد، حيث نُقِلَت كثير من المعادن الثمينة من الدويلات التي اجتيحت إلى مقدونيا ودويلات المدن الإغريقية؛ مما أسهم في رواج التجارة، وإن كان قد نُقِل الجانب الأكبر من الثروات النقدية التي استولي عليها الإسكندر من الإمبراطورية الفارسية إلى المناطق الغنية بمواردها ومحاصيلها الزراعية، فحضت سريعا بنصيبها من هذه الثروة؛ لأنَّ معظم بلاد الإغريق كانت في الغالب

مضطرة إلى تمويل نفسها؛ لكي تحصل على الحبوب والمواد الأولية من الخارج، ولذلك لم يكن ميسوراً أن تستمر بلادهم إلا بالدفع النقدي، كما لم يكن سهلا الحصول على الثروات المتداولة. وقد أوجد هذا النمو والرواج التجاري حركة تداول تجاري واسعة في منطقة اقتصادية مفتوحة للتجارة الحرة، تمتد من جبل طارق حتى إقليم كشمير، لها طابع واحد، وتدار جميع المعاملات التجارية فيها بلغة واحدة هي الإغريقية، ويمكن القول: إنَّ دويلات المدن الإغريقية قد استفادت كثيراً من هذه الفتوحات، حيث توسعت تجارتها، وأصبح أمام المواطن الإغريقي فرص كثيرة للعمل خارج نطاق الدولة، مما أسهم –فيما بعد– في زيادة هجرات الإغريق خارج بلادهم، والتوجه إلى المدن الجديدة، وفي الواقع إن الإغريق –حتى قبل الإسكندر– كانت أعداد منهم يشغلون مناصب رفيعة في الدولة الفارسية، كما كان آلاف المرتزقة من الجنود والبحارة الإغريق يكوِّنون ركناً مهماً من قواتها البحرية، وكان التجار يسيطرون على الطرق التجارية في الشرق القريب، وعن طريقهم أصبح غرب آسيا يصطبغ بالصبغة الإغريقية بخطى سريعة.

كما شهدت هذه الفترة –أيضاً– تأسيس عدة ممالك في آن واحد، ولم تكن هناك حدود ثابتة، مستقرة يقف عندها مؤسسو هذه المدن، حيث كانت المسألة متروكة للصراع العسكري والسياسي بشكل أساسي، في الواقع كان لهذه المدن الجديدة أثرٌ إيجابي على الرغم من أثرها السلبي على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للإغريق؛ بانتقال مراكز الجذب والنشاط التجاري والثقافي من دويلات المدن الإغريقية القديمة إلى هذه المدن الجديدة: الإسكندرية، وأنطاكيا، وبرجام، التي أصبح لها مكان ودور بين العواصم والمدن الكبرى التي تفوقها قدماً في البحر المتوسط، وعن طريق المدن الجديدة الشرقية التي شهدت نشاطًا، وتنتقل عبرها التجارة العالمية، انتشرت كذلك من خلالها الحضارة من بلاد الإغريق وإليها، حيث انتشرت الثقافة الإغريقية ببطء في آسيا وأفريقيا الشمالية وأوروبا الجنوبية، فقد نمت حياة جديدة مزدهرة بشكل آخر؛ ذلك لأن أفواجاً تلحقها أفواجٌ آخري من المهاجرين الإغريق الجدد أخذت تتدفق تباعاً على آسيا ومصر، وساهمت فتوحات الإسكندر في زيادة أعداد المهاجرين الجدد، بما وفرته لهم من فرص عيش جديدة، ومهدت سبل الاستيطان، فما شهده العصر البطلمي من نظم حضارية هو في الواقع انبعاث جديد لحضارة الإغريق في مستعمراتهم الجديدة في آسيا وأفريقيا.

كان عهد الإسكندر -على قصر مدته- مرحلة حاسمة في التاريخ السياسي والاقتصادي في أوروبا وأفريقيا وآسيا، كذلك أنتجت حروبه، ومهدت لولادة عهد جديد من التقارب والثقافة المشتركة في منطقة شاسعة ومتنوعة، إذ زادت مساحة العالم المعروف أضعافاً مضاعفة، وزادت معها الحاجة إلى زيادة الأفكار والمواد والمعلومات في نواحي المعرفة الإنسانية والطبيعية كافة، وتهيأت الظروف أمام البحث والاستكشاف في العالم المفتوح والمختلف، فكان طبيعيا أن يزيد زخم البحث والاهتمام بالكشوف، وأن يعمل وينهض الباحثون والمغامرون في كل مجالات العلوم والأبحاث، إلى تتبع وتسجيل كل ما هو غريب بدافع الفضول، أو من أجل حل المشكلات التي واجهتهم في بيئاتهم الجديدة، وعندما أصبحت الطريق ممهدة لقيام حياة كاملة ونشيطة، وجاءت نتائج عملهم وبحوثهم بنهضة في معظم النشاط الفكري والإنساني المادي، أسفرت عن تقدم هائل في العصر الهلينستي لم يسبق له مثيل قبل ذلك العهد، وخاصة في الجانب العلمي والتعليمي.

إنَّ فتوحات الإسكندر الأكبر نتج عنها معلومات جعلت تلك الأعمال والمعارف السابقة لها تبدو سطحية وغير دقيقة، وكان من نتيجة ذلك أن زادت قيمة التسجيل والوصف الجغرافي، كما أخذ الاهتمام بأغلب أعمال الجغرافيين وواضعي الخرائط السابقين يستند في نقدها على أساس علمي سليم، إذ كان لزاماً عليهم أن يسيروا بخطى أسرع؛ كي يلاحقوا الغزاة والمكتشفين، وأصبحت مهمتهم تعريف مواطنيهم بهذا العالم الجديد، ومحاولة الربط بين ما كان سائدا من أفكار ومعلومات، وبين الأفكار والمعلومات الجديدة التي يشاهدون تبعاتهم وتحقيق ثمارها أمامهم يوماً بعد يوم، كذلك كانت مهمة المؤرخين أن يصفوا ويحتفوا بأمم وأقوام لم يتطرق إليها أحد، وهذا ما يفسر ذلك الأثر الكبير الذي تركه شغف علماء هذا العصر وأدباءه بالبحث والتنقيب عن كل ما هو جديد بالنسبة لهم، فوجد المستكشفون ثقافاتٍ كانت مجهولة، وشعوبًا ذات عادات مغايرة أو غريبة، وتوفرت المادة الجغرافية والتاريخية التي اخذو يجمعونها ويكتبون عنها ويصفون طبيعتها وغرائبها، وقد أفاد الباحثون اللاحقون من هذه المدونات، وظهرت قيمتها في أعمالهم، وكذلك تميزت الفترة بظهور الفلاسفة الجدليين والمتشككين، الذين وضعوا أية قيم اجتماعية أو سياسية أو دينية موضع الجدل والشك (**آيدرس، 1955، ص45**).

إن الحضارة الإغريقية لم تسقط بسقوط المدن الحرة وخضوعها لقوة أخرى، تلك هي قوة مقدونيا الفتية التي وحدت العالم الإغريقي، بل كانت الفرصة والظروف مواتية لهذه الحضارة أن

تنهض وتقوم بدور المعلم، وتنتشر انتشاراً واسعاً في كل العالم الذي وصل إليه الإسكندر، وتتخذ اسماً وشكلاً خاصاً بها وهي الفترة الهلنستية، وهذه التسمية المركبة تعني الصبغ بالصبغة الإغريقية في غير بلادها الأصلية، وبداية لحقبة انتقال كبرى، تمثلت في بروز ثقافة مختلطة ومبتكرة، التقت فيها العناصر الغربية بعناصر أخرى شرقية، وهذا الالتقاء الثقافي مهما اختلفت درجته ونوعه كان له إطاره المتميز وشكله المشترك، وتتفق معظم الآراء على وصفها بالمرحلة الجديدة والانتقالية في جوهرها وشكلها، حيث طابعها الحضاري الخاص بها، مقارنة بمراحل الانتقال الأخرى، من جميع جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وعندما كانت الظروف سانحة لهذه الحضارة لكي تستقر وتزدهر وتكتسب بُعداً كُلياً يمثل المزج الثقافي الزماني والمكاني بين الشرق والغرب، أي الحضارة الهلينية القديمة مختلطة بعناصر الحضارة الشرقية الأقدم، وأصبح المقصود بالعالم الهلينستي، كل تلك البقاع المتباعدة والمتنافرة التي تألفت منها مكونات ومعطيات لواقع جديد، وهذا يدل على أن الحضارة الإنسانية تنمو وتستمر حيثما توافرت المقومات، ولا ترتبط بمكان وزمان محددين إلا بتوافر عواملها، وهذا ما يعطي الحضارة الإنسانية –أينما وجدت ونهضت– روحها وبُعدها الإنسان (Tarn ,1830,p390)

لاشك في أن الإسكندر المقدوني أوتى نبوغًا عسكريًا وطموحًا سياسيًا؛ حتى استطاع أن يجمع قوى متفرقة على هدف واحد، ويقود دولة أو جيشاً خليطاً من الأجناس؛ من بني جلدته المقدونيين، وجماعات من الأناضول، وكتل إغريقية عديدة، واستطاع بوساطتها تحقيق كل هذه الانتصارات السريعة المتلاحقة على قوى كبرى في زمن قياسي، فلم يكن الإسكندر قائداً حربياً فحسب، يهدف إلى الغزو والتوسع، بل كان إدارياً حازماً، حكم الأملاك الواسعة التي افتتحها بقوة السلاح، حكماً رفيقاً في وحدة ثقافية جامعة، تقودها وتسمو بها حضارة بلاد الإغريق، وكان زعيماً سياسياً يعمل في تطبيقها، إذ تمثل هذه الفترة –من نواح كثيرة– اتجاهاً نحو وحدة حضارية واحدة، ذلك أنه على الرغم من أن الأقاليم والمدن الإغريقية القديمة منها خاصة تمسكت من الوجهة العملية بمبدأ الانفصالية والاستقلال، ومن ثم نشأت فكرة وجود عالم واحد مُلك مُشترك للبشر المتحضرين، ومن أجله وجدت حضارة وثقافة مشتركة، ساعدت على التقارب والتعايش بين عناصر هذا العالم المتحد، أما ما كان بين الغرب والشرق من التناقض والاختلاف، فهو الذي صنع الفترة الهلنستية تحديداً بسماتها وبصبغتها المعروفة، ورسم تاريخها وخطوطها الرئيسية، فلولا

هذه الحضارات الشرقية و الهلينية لما وجدت الحضارة الهلنستية، إن فتوحات الإسكندر وأعماله تكشفت عن نتائج غيرت وجه العالم، فلم يعد شيء على حالته السابقة (•).

الخاتمة:

في الختام يمكن القول: إنَّ ما سبق ذكره في هذه الدراسة هو إنجاز واضح وصريح ينسب دون شك للإسكندر ولمن كان حوله من القادة، هو في النهاية حصيلة تكوينه وتنشئته وتعليمه المتميز، فهذه العناصر مجتمعه أسهمت بنصيب وافر في هذا التكوين القيادي، وهذا الذكاء الفطري، والعبقرية الفذة، بقدر ما هي موهبة، بقدر الحاجة إلى المعرفة والخبرة للاستفادة من تجارب الآخرين وعلومهم، ولهذا اعتبرت وظلت سيرته –من وجهة نظر كُتاب ومؤرخين كثيرين–نموذجاً مثالياً لبناء قادة السلم والحرب.

هذه المرحلة التاريخية والحافلة بالأحداث الكبيرة وما شهدته من تغيرات في موازين القوة العالمية، وكذلك ما أحدثته من تغير في التركيبة السكانية لسكان ثلاث قارات؛ يعد بما لا يدع مجالًا للشك مرحلة مفصلية ومحطة مهمة من محطات التاريخ القديم.

يعتبر ما فعله الإسكندر في هذه الفترة القصيرة من عمره أمر جدير بالتوقف عنده، وفهمه فهماً علمياً بعيداً عن التهويل والمبالغات، وفي بعض الأحيان الشطحات الفكرية التي لا تستند إلى أسس علمية يمكن الركون إليها بثقة تامة. على سبيل المثال يتغنى بعض الباحثين بإمبراطورية الإسكندر المزعومة، ويستندون بقولهم كان الإسكندر ينوي أن يفعل... وهنا على الباحث أن يتوقف كثيراً، لم أجد – على حد اطلاعي– أي وثيقة تاريخية تؤكد نوايا الإسكندر، مع يقيني أنَّ النوايا مكانها القلوب، ولا يعلمها إلا الذي خلقها، وبالتالي على الباحث أن يتريث ويدقق فيما يكتبه، وهذا لا يعني

• أرسطو طاليس 384– 322 ق.م تلميذ أفلاطون إلا أنه اختلف عنه، وفاق أستاذه في العلوم ولكنه لم يبلغ شأنه في الفلسفة، وقبل أن يكون تلميذاً لأفلاطون كان قد تلقى شيئاً من التشريع، جاء إلى أثينا من مسقط رأسه في اسطاغيرا وهي مستعمرة إغريقية صغيرة في تراقيا، وكان أبوه الطبيب الخاص لأمينتاس الثاني Amyntas II والد فليب، وكان الإسكندر الأكبر أحد تلاميذه، وهو أول المدرسين كما سماه بيتر Peter، وقد كتب وترك مجموعة كبيرة من الإنتاج منها: فيما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة والمنطق، يعتبر الأرجانون هو الجامع لكل مؤلفاته في المنطق، من أعظم مؤلفاته في فن البلاغة وفن الشعر، ويرى أرسطو أن الدولة عليها أن تتولى تنظيم الملكية والصناعة والأسرة والزواج والتعليم والفنون، ديو رانت، ولي وإبريل، قصة الحضارة "حياة اليونان"، (ت محمد بدران)، مج7، ج2، بيروت، دار الجيل، 1998، ص 314– 492؛ الأثرم، عبد الحميد رجب، دراسات في تاريخ الإغريق بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ط2، 2001، ص 210.

على الإطلاق -**ولا ينبغي له أن يعني**- ألا يجتهد الباحث، فيمكن أن يتصور في ضوء ما يتوفر له من معلومات أو يقترح ما يشاء، ولكن لا ينسب ذلك لنوايا الموتى، سواء أكانوا قادةً أم أفرادًا.

ويمكن القول: إنَّ الإسكندر المقدوني فتح أمام المقدونيين والإغريق عالماً جديداً، يمتد على ثلاث قارات، ومنح الثقافة واللغة الإغريقية مجالاً للانتشار في بقاع كثيرة من الأرض، وطَرَقَ لتجار الإغريق أبواباً جديدة للثراء كانت قبله موصده وحكراً على أبناء فينيقيا، وكبار تجار فارس، أما الحقبة التي أعقبت موته، وما حدث فيها من صراعات بين رفاقه من كبار القادة، فقد اتسمت بالفوضى وعدم الاستقرار، فذهبت جهود الذين حاولوا الإبقاء على هذا الكيان موحداً أدراج الرياح، وظهرت المصالح الخاصة، والتفرد بالسلطة عند أغلب رفقاء الإسكندر، وهذا أمرٌ آخر يحتاج للدرس والبحث، أتمنى إنجازه في وقت لاحق

قائمة المصادر:

- أبوبكر، نادية محمد،(2001)،دراسات العصر الهليني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- المحجوب، عبد المنعم،(2013)، معجم تانيت، دار الكتب العلمية ،بيروت.
- الناصري، السيد احمد،(1986) الإغريق تاريخهم وحضارتهم ، ط 2،دار النهضة العربية ،القاهرة.
- آيدرس، بل، (1950)،الهلينية في مصر، (ت زكى علي)، دار المعارف، القاهرة.
- الأثرم، رجب، عبد الحميد،(2001)،دراسات في تاريخ الإغريق، منشورات جامعة قاريونس، ط2، بنغازي.
- بورتو، هارفى،(1991) مختصر التاريخ القديم، (ت إبراهيم حوراني)، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- تارن، ويليم وود،(1992) الحضارة الهلينية، (ت. جريفيث)، ط 1،إنجلترا.
- حسين، عاصم أحمد، (1998) المدخل إلى تاريخ وحضارة الإغريق، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة.
- روبنسن، هـ ، ج،(د ت) تاريخ العالم "انتشار الحضارة اليونانية في الشرق"، مج3،(ت إدارة الترجمة بوزارة المعارف)، مكتبة النهضة، بيروت.
- صفا، محمد أسد الله،(1985) أعلام الحرب " الإسكندر المقدوني"، ج1، دار النفائس، ط1،بيروت.
- لامب، هارولد، (1995) الإسكندر المقدوني، (ت. عبد الجبار عبد المطلب ومحمد ناصر الصانع)، المكتبة الأهلية، بغداد.
- مكاوي، فوزي،(1999) الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والروماني، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة.
- ل ديورانت،(1998) قصة الحضارة "حياة اليونان"، (ت محمد بدران)، مج7، ج2، دار الجيل، بيروت.
- يحيى، لطفي عبد الوهاب،(1977) دراسات في العصر الهلينستي ، دار النهضة العربية، بيروت.
- Freeman, P,(2011). *Alexander The Great*, London.
- Glotz, G, (1929). *The Greek City*, London.
- Renault, Mary, (1979). *The Nature Of Alexander*, London.
- Tarn, W. William G Griffith, G. T. (1830). Hellenistic Civilization, London
- *The Cambridge Aancient History*, (1988) IV: VII, Cambridge University.